خطة انهاء التيار الصدري صارت معروفة فماذا سيتبعها؟

عبدالامير الركابي *

■ قبل اعلان الرئيس الامريكي «خطته الجديدة» في العراق، السي ان ن اعلنت بان بوش الأبن، قرر ارسال 40 الف جندي امريكي اضافي الى العراق، اي مايساوي ثلث القوات الامريكية الموجودة هناك، نحن اذن امام مهمة ـ تصل لدرجة «ثلث غزو»، وهذا كثير بعد اربع سنوات الا ثلثا، انقضت على بداية الغزو الاول، المتعثر، الفاشل، والدموي، السائر من مأزق الى مأزق، ومن حماقة الى اخرى، هل هو الغزو الثاني؟ هذا ليس بالامر الجديد، فالاحتلالات التي عرفها العراق، كانت في العادة تتجدد بما يشبه القانون. الساسانيون دمروا بابل على مراحل وموجات وحملات متوالية، وهولاكو اعقبة تيمورلنك، وكان اقسى على بغداد من سلفه، العثمانيون احتلوا العراق ثلاث مرات، كان اخرها عام 1831، مع الحملة التي قادها علي رضا لازاحة داوود باشا، الانكليز احتلوا العراق مرتين، الاولى استقرت عام 1917 والثانية كانت عام 1941 اثر انتفاضة رشيد عالي الكيلاني، هذا لا يعني ان التاريخ يكرر نفسه اليوم، من دون مآس ولا مهازل، او متغيرات كبيرة وعميقه.

فالولايات المتحدة ليست تركيا العثمانية، والبيت الابيض ليس الباب العالي، وعالم الامبراطورية الامريكيه الذي نعيش تحت وطاة تخبطاته الكونية اليوم، لا يجمعه سوى النزر اليسير من التشابهات في الجوهر، مع الامبراطورية البريطانيه التي لم تكن تغيب عن ممالكها الشمس، ومشروع الاحتلال الامريكي للعراق، ليس هناك مايجمعه من حيث الابعاد والاستهدافات العالمية والاقليمية، مع اي من الاحتلالات التي عرفها هذا البلد على مر القرون، فالعراق اليوم ليس مستعمرة امريكية، بقدرما هو منطلق وقاعدة هجوم اقليمي وعالمي، واحتلاله، وحركة المحتلين فيه، لا تحسب داخل البلاد المحتلة وحسب. هكذا خطط العدو بالاصل، وهكذا انتهى، فالشيء الوحيد الحقيقي والصائب من اختبارات الاحتلال، ونتائجه التي تعلمناها وتعلمها المحتلون، تقول: ان احتلال العراق ابعد واوسع من العراق فعلا، وليس افتراضا، وان الوجود الامريكي هنا، محكوم كل يوم بادارة معركة اقليمية وعالمية، يلعب العراق وتكوينه وتاريخه وتمخضات مستقبله فيها، الدور الحاسم على المدى البعيد، وهو ينمو ويعاد تشكله، وتتطور عمليته التاريخية تحت الصراع، وفي غمرته، بينما هو يذهب من مرحلة من تاريخه وتطوره انقضت، الى مرحلة اخرى ابعد واعلى واشمل.

عناوين المعركة الكونية، المتحكمة اليوم بتوجهات الدولة الاقوى في العالم ثلاث، هي: النفط، والقومية، والاسلام، وهي نفس عناوين اهتمام الوعي الوطني العراقي وشغله الشاغل، مع انه لا يمكن في عالمنا، تصورثلاثية اشمل واعقد من هذه، واكثر امتدادا، من حيث التأثير على خيارات واهتمامات المعمورة برمتها، كما لا توجد مشكلة اخطر من مشكلة، او امتحان توليف الرؤية، او المنظومة التصورية المناسبة للتعامل معها، واحتوائها، هنا تتمثل معضلة الغزو وينفضح ضعفه وتخبطه، وهنا تعجز الوصفات، ويتردى النصح بما فيه قطعا، نصح (بيكر /هاملتون)...

دعونا نخرج قليلا الى عالم القصص والحكمة، ونتذكر الف ليله وليلة وبورخيس، فاحدى القصص تقول، ان «مليكا» حكم على شخص ما بالسجن مدى الحياة، وقال له ان استطعت ان تفتح باب السجن وتخرج منه، فساعتبرك طليقا واعفو عنك، وادخله السجن، وبعد عشرين سنة اخرجه، ليساله: لماذا لم يتمكن من الخروج، فقال السجين تعيس الحظ: «كنت احاول ولم اكف عن المحاولة»، فاخذه الملك الى السجن وساله: «ماذا كنت تفعل حتى تخرج؟» فقال «كنت احاول دفع الباب الى الخارج لكن الاقفال على مايبدو كانت محكمة وقوية ففاجاه الملك بالقول: «لم تكن هنالك اقفال والباب كان مفتوحا، وكل ماكان عليك ان تفعله، ان تفتح الباب الى الداخل لا الى الخارج»، وهكذا يمكن ان يضيع من عمر البشر ما ضاع من عمر هذا السجين واكثر، بسبب فكرة او حركة خفية او ضائعة.

الامريكيون لن يتمكنوا ابدا من اكتشاف الوصفة، مهما فعلوا، والوعي الوطني العراقي مايزال يحبو، متلعثما هو الآخر بين بقايا الهيكل المدمر، والافكار المهشمة المتخلفة من الماضي، غير ان حظ الوطنية العراقية اكبر بما لايقاس، ومع الوقت، سوف يسير العراق الى المستقبل، ويخرج من بقايا الماضي وتعثراته واضاءاته المنكسفة، اما الامريكيون، فانهم سيظلون يتخبطون امام قضية كبرى، جاءوا لكي يفجروها، فغاصوا فيها لكي يخلقوا باسم القدر والتاريخ، معجزة ثورة وطنية، هي اليوم في طريق التشكل فوق الارض الاولى، فالى اين يسير الاحتلال الثاني المبتدئ اليوم؟

كل الدلائل تشير الى ان مواجهة مع ايران في العراق، تدبر في اللحظات الراهنه، عبر تكريس الخيار الشيعي العراقي، على حساب الخيار الايراني، والدلائل على قرب ضرب التيار الصدري تتجمع في الافق، وسيكون من بين، لا بل من اول مهمات القوات المستقدمة الى العراق، تنفيذ تلك المهمة، فعبدالعزيز الحكيم، واكثر اعضاء الحكم ارتباطا بالاحتلال واجهزته، لايتوقفون عن التمهيد لسيناريو قتل السيد وتياره، من ذلك مثلا كل ماجرى اثناء عملية اعدام صدام حسين، وكل ما القي من شبهات، واقاويل تم الصاقها بالتيار الصدري، وبمقتدى الصدر شخصيا، وهو جهد قام به على احسن وجه موفق الربيعي وعبدالعزيز الحكيم، واستعملت لانجاحه، اندساسات داخل التيار الصدري، وجهالة لا ينبغي ان تنسى تعم صفوف منتسبيه ومحازبيه، غير ان الحكيم الذي يثبت الان قدميه في الملعب الامريكي، تاركا بعضا من ظلاله في حجر الايرانيين، سادته التاريخيين، ليس هو الشخص الذي يمكن التعويل عليه، وبمجرد ان منح هذا الشخص العديم الاهلية، ملامح قبول من الادارة الامريكية، فان شهيته الدونية تضخمت الى الحد الذي يليق بامثاله، وها هو لم يعد يقبل، حتى بشروط ومشاريع كان يقبلها بالامس.

فالحكيم ينوي بالحاح، تحويل العراق الى محمية لال الحكيم، ومع تبينه لنوايا اعتماد الامريكيين خيار النجف على حساب ايران، بعد اضعاف الاخيرة، ولو عسكريا، بدا يخطط لعراق، رئيس وزرائه من آل الحكيم، ومرجعه الاعلى منهم، الاول حسب ترشيحات عبدالعزيز الحكيم الجديدة هو اكرم الحكيم، الوزير في حكومة المالكي الحاليه، وليس مرشحه الاصلي عادل عبدالمهدي، والثاني هو المرجع محمد سعيد الحكيم، بديلا عن علي السيستاني، ومع وجود «عدي»، او الحكيم الصغير «عمار»، الذي لا يشبع، فان العقل المغلق، والجشع اللائق بالصغار، يكون قد حل على العراق، وليس التغيير الذي كان بوش يعد به العالم.

ولكن كم على الحكيم ان يقتل من الشيعة، قبل ان يصل الى اهدافه، التيار الصدري اولا، بكل ثقله وامتداداته الشعبية، وحزب الدعوة الثائر اليوم على المالكي وعبدالعزيز الحكيم، وقبل هؤلاء واولهم المرجع الحالي علي السيستاني، وياله من ثمن ومن مصير، مع انه من ناحية اخرى، اقرب الى انقلاب يؤجج الثورة والمقاومة، فكل هذه القوى التي يوكل امرها الى «صغير» لكي يعمل فيها قتلا، املا في ان يجعل العراق «محمية حكيمية»، لن تقف لتتفرج على عبدالعزيز وحلفائه، القادمين اليوم لزيادة اعداد المحتلين، وهي توغل فيهم ذبحا، وتدمر وجودهم، ثم هل ستقبل ايران هذا المآل، من دون ان تلجا الى شيء من العمل الاستباقي؟ وما هي الابعاد التي يمكن ان تنبثق من مثل هذا المسار الجديد للاحتلال في طوره الثاني ؟

في الخطة الامريكية الحالية، ما يمكن ان يفضي الى كسر تسارعات الاحتراب الداخلي، بين السنة والشيعة، حتى وان كان الامريكيون وعملاؤهم، قد دقوا اسفينا جديدا قاسيا بين العراقيين، باعدامهم صدام حسين بالطريقة التي اعدموه بها، وكل مقومات سياسة الاحتلال الراهنة، تفضي من ناحية ردة الفعل المتوقعة والمنطقية، الى تامين اسباب استعادة اللحمة على المستوى الوطني، فالهجوم الامريكي، الحالي والمقبل، يتضمن في اهم بنوده، معركة قاسية وشرسة مع «الشيعة» في الجنوب والوسط، ناهيك عن بغداد، فتيار الصدر، لن يتوانى عن ضرب وتصفية جماعة الحكيم في مناطق الجنوب ومدنه كلها، واذا اقدم الحكيم على قتل السيستاني، فان الاجواء عموما سوف تنقلب، واضعة الشيعة العراقيين في قلب المواجهة مع الامريكيين، وهذا ماسيفتح موضوعيا السبيل امام التحام هؤلاء مع المقاومين في المناطق الغربيه من العراق، وفي بغداد.

ستظل الولايات المتحدة تدفع الباب الى الخارج، هذا ماانتهت اليه ضجة (بيكر/ هاملتون)، وهذا بالضبط مايسمونه «التغيير» المنتظر في السياسة الامريكيه في العراق....

قصة ونوايا انهاء تيار الصدر، او قتله، معروفة ومتداولة بقيت قصة قتل السيستاني، هل سيقدم عليها الحكيم؟ متى؟

* كاتب من العراق يقيم في باريس

الاقتصاديات العربية في مهب الريح

د. لويس حبيقة*

■ لبنان ليس الاقتصاد الوحيد في المنطقة الذي يمر في أزمة. جذور المشكلة الاقتصادية في لبنان هي سياسية في معظمها، وناتجة خاصة عن سوء المعالجة عبر الزمن وعن ضبابية الحوار والتشاور السياسيين اللذين لم يؤديا الى أية نتائج عملية تذكر. يحتاج الاقتصاد اللبناني الى تنفيذ العديد من الاصلاحات في القوانين الاقتصادية والمالية كما في الادارة العامة. يحتاج لبنان الى الحوار الصريح والشفاف ضمن المؤسسات الدستورية التشريعية والتنفيذية. من غير المقبول أن تطول الفترة التي لا يستطيع فيها مجلس الوزراء الاجتماع لمعالجة الأمور الطارئة والأساسية مهما كانت الأسباب، كما من غير المقبول أن لا يدعى مجلس النواب للاجتماع لمعالجة ودرس ومناقشة المشاكل التي نمر بها. وجدت المؤسسات الممولة من الشعب اللبناني لتهتم بمصالحه وتقوم بدورها ليس فقط في الظروف العادية والسهلة، وانما خاصة في الظروف الدقيقة كالتي نعيش فيها. تشجيع الحوار ضمن المؤسسات يريح الشارع ويعيد الطلاب الى مدارسهم وجامعاتهم كما يعيد العمال الى شركاتهم ومؤسساتهم. يجب أن يعود لبنان الى الأوضاع الطبيعية التي تسمح للمواطن بالتركيز على أعماله أو دروسه لهدف رفع الانتاجية التي وحدها تحفز النمو وتحسن الرفاهية الاجتماعية وتنقل الاقتصاد الى مستويات أفضل.

لبنان ليس الوحيد الذي يقع اقتصاده عمليا في مهب الريح. فمشاكل الاقتصاديات العربية الأخرى تنبع أيضا من السياسة، الا أن الغالب عليها اليوم هي القوانين القديمة التي يجب الغاؤها وتبديلها أو تحديثها. يجب أن تصبح المنطقة العربية منطقة اقتصادية بكل ما في الكلمة من معنى، أي يتطور فيها التبادل التجاري والمالي ليصل الى الحدود المعروفة في أمريكا اللاتينية وآسيا. فالمنطقة العربية مفككة اقتصاديا اليوم ليس فقط بسبب السياسة وانما أيضا بسبب سوء تطبيق الاصلاحات في الأنظمة المصرفية والتأمين والاتصالات والنقل والجمارك وخاصة في المعلومات. في الخصخصة مثلا، التأخير النسبي واضح في المنطقة مقارنة بأمريكا اللاتينية وذلك بالرغم من التقدم الذي حصل بين فترتي 1990ـ1999 و2000ـ2003. تأتي مصر والمغرب والسعودية والأردن في مقدمة الدول التي خصخصت قطاع الاتصالات. لا شك أن دول المنطقة تنفق على الأمن والدفاع كنسبة من الناتج المحلي الاجمالي أكثر بكثير من غيرها 14 % أو 21 مليار دولار للسعودية و14 % لعمان و12 % للكويت و11 % لسورية. بالأرقام دوليا، تأتي الولايات المتحدة في طليعة الدول التي تنفق على الدفاع 522 مليار دولار في السنة الماضية ثم الصين وروسيا 62 مليار دولار لكل منهما وبريطانيا 51 مليارا واليابان 44,7 مليار. هنالك ورشة عمل يجب المباشرة بها لوقف التراجع النسبي وتخفيف اعتماد المنطقة على النفط كمصدر رئيسي للنمو ولتمويل الانفاق العام.

تمر المنطقة العربية عموما في ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة نتيجة الأوضاع الخطيرة القائمة في العراق وفلسطين ولبنان. أسباب هذه الأوضاع كما نتائجها تتخطى الحدود الجغرافية التي تجري ضمنها لتصل الى النسيج السكاني والاجتماعي لكل الدول العربية. فالأبعاد الاقتصادية معروفة وتؤدي دون شك الى زيادة الفقر والبطالة في المنطقة. لا يكفي أن تكون الأوضاع المالية جيدة في الدول النفطية وحدها، اذ أن الأهم للاستقرار العام الدائم المشترك هو تحسن أوضاع الدول الأخرى. فالفقر والظلم هما دائما مصدران أساسيان للتوتر الأمني والسياسي كما للعمليات الارهابية في كل الدول.

اذا قارنا مثلا الدخل الفردي الاجمالي لبعض دول المنطقة، نرى انه لا يتعدى 1720 دولارا للجزائر و1470 دولارا لمصر و1130 دولارا لسورية 4 آلاف دولار للبنان مقارنة بـ16510 دولارات في اسرائيل و33550 دولارا في اليابان. ما يقلق بالنسبة للمنطقة هو توسع الاقتصاد غير الرسمي الشرعي وغير الشرعي الذي يقارب حجمه في مصر مثلا 35 % من الاقتصاد الرسمي 34 % في لبنان، 36 % في المغرب و38 % في تونس) مقارنة بـ22 % في اسرائيل و19 % في ايران و9 % في الولايات المتحدة. من الضروري أن تبذل الحكومات العربية كل الجهد لادخال هذه النشاطات غير الرسمية في الاقتصاد الرسمي ليس فقط لتحسين الاحصائيات وانما لتفعيل هذا النشاط لمصلحة السكان ككل. هنالك أسباب هيكلية وقانونية ومعيشية لتوسع النشاطات غير الرسمية يجب معالجتها، ربما عبر تجربة الاقتصادي محمد يونس الذي حصل على جائزة نوبل للسلام هذه السنة.

أدخل محمد يونس الفقراء الى النشاط المالي الرسمي عبر اقراضهم أموالا قليلة لكنها كانت كافية لمحاربة فقرهم والانتقال الى أوضاع أفضل. أعطيت هذه القروض لأشخاص يفتقرون الى الضمانات المتعارف عليها في الأنظمة المصرفية التجارية العادية. توسع مصرفه «غرامين» في بنغلادش ليحتوي اليوم على 6,7 مليون مقترض مع محفظة قروض بلغت 6 مليارات دولار، مما يعني أن متوسط القرض الفردي كان أقل من 200 دولار. يتوسع نشاط «غرامين» اليوم ليشمل الودائع وبالتالي يتحول تدريجيا الى مصرف تجاري عادي مع تحسن أحوال المقترضين. ما زالت هذه التجربة خجولة جدا في الأقطار العربية، خاصة الفقيرة منها، ليس بسبب عدم توافر الأموال وانما بسبب غياب المؤسسات الشفافة والشرعية التي يمكن أن تقوم بهذه الأعمال لمصلحة الفقراء. لا بد من نقل تجربة محمد يونس عبر المنظمات غير الحكومية الى كل الاقتصاديات العربية.

من أسباب ضعف النمو الاقتصادي العربي هو صعوبة تأسيس شركات جديدة. عالميا، تشير الدراسات الى أن الشركات الفردية والصغيرة هي مصدر الأفكار الجديدة وبالتالي يجب تسهيل تأسيسها في التكلفة والوقت. اذا أخذنا عدد المراحل الادارية التي يجب المرور بها لتأسيس شركة، نرى انها تبلغ 18 في الجزائر و13 في مصر و14 في الأردن و6 في لبنان و11 في المغرب مقارنة بـ5 في كل من اسرائيل والولايات المتحدة. أما الوقت الذي تتطلبه هذه المراحل فيتعدى 43 يوما في مصر و98 يوما في الأردن و42 يوما في سورية مقارنة بـ4 أيام في الولايات المتحدة و18 يوما في بريطانيا. على الدول العربية أن تبذل جهدها لتخفيض هذا الوقت الضائع الى النصف قبل انتهاء هذا العقد بحيث يتشجع الممولون المحليون والدوليون أكثر على الاستثمار في المنطقة. أما تكلفة الاجراءات الادارية كما الحد الأدنى للرأس المال المطلوب لتأسيس شركة، فيبقيان نسبيا مرتفعين جدا مقارنة بالدول الصناعية وحتى الناشئة. تحتوي المنطقة العربية على فرص استثمارية كبرى في كل القطاعات، الا أن ضبابية المعلومات وضعف المؤسسات ونوعية القوانين تعوق تدفق الاستثمارات.

أما في الاجراءات اللازمة لتوظيف العمال وتسريحهم وفيما يخص أسواق العمل عموما، تبقى المرونة في الدول العربية من الأضعف في العالم بسبب القوانين القديمة وسوء اداء المؤسسات القضائية المتخصصة. في مؤشر البنك الدولي، يظهر جليا التأخر في هذا المضمار. لا يمكن تشجيع الاستثمارات في غياب آليات لتنفيذ العقود، اذ ماذا تنفع هذه العقود اذا كانت غير قابلة للتنفيذ أو اذا اراد احد الفرقاء التهرب من واجباته. في عدد المراحل الواجب اتباعها لفرض تنفيذ أي عقد، تسجل المؤشرات الدولية الرقم 20 للجزائر و32 للأردن و27 للبنان و36 لسورية مقابل 23 لايران و21 لفرنسا و12 فقط في بريطانيا. لا شك أن المدة التي يتطلبها فرض تنفيذ العقود ضمن القوانين المرعية الاجراء، كما التكلفة تبقيان مرتفعتين مقارنة بالدول الغربية. أخيرا ستبقى الاقتصاديات العربية في مهب الريح ليس بسبب العولمة أو الانفتاح، وانما بسبب التباطؤ في تنفيذ الاصلاحات في القوانين والمؤسسات.

* كاتب من لبنان

لو كان مالك بن نبي في غزة!

محمد شاويش*

■ في اوروبا اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ظهر نوع من الخلل في تفكير بعض السياسيين والاحزاب يتمثل في الاعتقاد السائد ان كل مشكلات المجتمع تحل بالتصويت البرلماني، وقد سمى النقاد هذا الخلل باسم «البلاهة البرلمانية».

كلما سمعت او قرأت تصريحات المتصارعين حول «السلطة» و«الانتخابات» في فلسطين المحتلة عام 1967، اتذكر ما قاله احد السياسيين الروس في العهد القيصري، حين بدأ بعض السياسيين المعارضين للنظام القيصري القائم على الهيمنة الفردية بلا برلمان ولا انتخابات يتكلمون مسبقا عن فوائد برلمان وعد به القيصر وكيف سيحل هذا البرلمان كل مشاكل روسيا المستعصية، قال السياسي الروسي: «مسكينة روسيا! ليس عندنا الى الان برلمان ولكن عندنا ما يكفي ويزيد من البلاهة البرلمانية!».

من حق اهل فلسطين ان يقولوا: «مسكينة فلسطين! ليس عندنا دولة ولا سلطة حقيقية ولكن عندنا ما يكفي ويزيد من الصراع على السلطة!».

وهذا النوع المؤذي من البلاهة التي سماها الفقير لله في مقالات سابقة «فرط التسيس» كان للمفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي (1905ـ1973) فضل السبق في تسليط الاضواء عليه وعلى اضراره ونتائجه الانحطاطية المعرقلة لكل نهوض حضاري.

من المعروف ان مالك بن نبي كان يهتم اولا بكيفية نهوض المجتمع المسلم من سباته الحضاري، وهو المجتمع الذي يسميه «مجتمع ما بعد الموحدين» ويسمي انسانه «انسان ما بعد الحضارة»، هو انسان انتهت الدفعة الحيوية الخلاقة التي تلقاها من الوحي الاسلامي وصار اشبه بالماء بعد ان نزل من الشلال وحرك عجلات الحضارة وفقد طاقته المحركة، فلا يستعيدها من جديد الا بدورة حضارة جديدة، بشمس تبخر هذا الماء وتغير طبيعته لينزل من جديد مملوءا بحيوية خلاقة جديدة. وقد انتقل مالك بصورة طبيعية من الاهتمام بوضع العالم الاسلامي الى الاهتمام بوضع المجتمعات الفقيرة عموما، وبحث مشكلاتها وعلق الآمال على الفكرة الافريقية الاسيوية والحركة التي احدثها «مؤتمر باندونغ».

وقد ذكر مالك في كتابه النظري الرئيسي «شروط النهضة» بامتعاض كبير النهاية التي انتهت اليها حركة النهضة المبشرة في الجزائر في ثلاثينات القرن العشرين، النهضة التي قادتها «جمعية العلماء»، فبعد ان كانت هذه النهضة شاملة للاساس الاجتماعي ورافعة شعار «القيام بالواجبات»، مما جعل المجتمع بأسره ينهض عندما قرر كل فرد فيه ان يقوم بدوره في المهمة التاريخية للنهضة، مهمة التخلص من «القابلية للاستعمار» وليس الاستعمار فقط، جاء الاستعمار وقدم للمجتمع الجزائري هدية مخدرة تلغي النهضة من اساسها: لقد انشأ للجزائريين انتخابات شكلية وجاء من اشتغل بهذا المخطط وبدأ يطرح الشعارات الانتخابية التي ترتكز الى مبدأ «المطالبة بالحقوق» من السلطة او الجمعية المنتخبة. ويقول بن نبي ان «الزردة» اي الولائم التي كانت الناس تقيمها للاولياء راجية منهم حل مشاكلهم الاجتماعية المستعصية، والتي قضت عليها نهضة جمعية العلماء، عادت في هذا الشكل الجديد، شكل طلب الحقوق من هيئة عليا وترك القيام بالواجبات التي من شأنها وحدها ان تؤدي الى حل هذه المشاكل. ضلت النهضة طريقها «ميممة وجهها شطر السراب السياسي، حيث تتوارى من ورائها بوارق النهضة والتقدم. لقد اصبحنا لا نتكلم الا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا ان مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من افكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية بما فيها من قيم الجمال والاخلاق وما فيه ايضا من نقائص تعتري كل شعب نائم».

وبدلا من ان تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة الى الحياة فانها اصبحت منذ سنة 1936 سوقا للانتخابات وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية «فلكم شربنا في تلك الايام الشاي وكم سمعنا من الاسطوانات، وكم رددنا عبارة «اننا نطالب بحقوقنا» تلك الحقوق الخلابة المغرية التي يستسهلها الناس فلا يعمدون الى الطريق الاصعب: طريق الواجبات».

كان نقد مالك بن نبي هذا نقدا رائدا، فهو في اعتقادي من اوائل من سلط الضوء على ما يمكن تسميته «ظاهرة فرط التسيس» في الايديولوجيا العربية المعاصرة، فمن السياسة المفهومة على انها فن الاستيلاء على السلطة رجا العربي في القرن العشرين حل جميع مشاكله، فالحل يأتي من «السلطة الجيدة»، ومن دون هذه السلطة لا ينفع شيء ومعها لا يضر شيء! ثم لا زال على هذه الحال ولو باشكال جديدة في هذا القرن الحادي والعشرين، في المقابل طالب مالك بمفهوم للسياسة يجعل منها «علم اجتماع مطبقا»، وهو مفهوم ينطلق من استغلال امثل للوسائل المتوفرة في المجتمع الخاضع للاستعمار ووفق «منطق عملي» راشد هدفه الاول تخليص المجتمع من «القابلية للاستعمار»، هذا المنطق العملي الذي يعرفه بأنه «استخلاص اقصى ما يمكن من الفائدة في وسائل معينة»، ويقول عن مجتمعنا: «اننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافاعلية في اعمالنا اذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهازلة. واذا ما اردنا حصرا لهذه القضية فاننا نرى سببها الاصيل في افتقادنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها فسياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا»، وفي المرحلة الثانية ينتقل المجتمع من استعمال الوسائل المتوفرة الى تحسين هذه الوسائل نفسها ليستطيع المجتمع التخلص من الاستعمار.

تناول مالك بالطبع في كتبه المأساة الفلسطينية، وقد رأى ان العرب في موقفهم من هذه المأساة انتقلوا من ذهان فرط الاستسهال الى ذهان اليأس والقنوط، ومن الممكن ان تعبر عن هذه الفكرة فيما اعتقد بمصطلحات مفكر عربي آخر ذي توجه نقيض ظاهريا لمالك هو ياسين الحافظ صاحب كتاب «اللاعقلانية في السياسة»، فياسين يقول ان الثوروية الرومنسية التي لا تقوم على قاعدة عقلانية تتحول بسهولة الينزعة امتثالية استسلامية، وهاتان الملاحظتان من هذين المفكرين تصيبان بلا شك كبد الحقيقة، بل هما رؤيتان تنبئيتان للوضع الراهن الذي لم يدركا منه الا بداياته وارهاصاته الاولى.

جلب اتفاق اوسلو للفلسطينيين بالفعل شيئا شبيها جدا بما جلبته انتخابات الجزائر في الثلاثينات لوضع نهوضي، فالنهضة الاجتماعية المرموقة التي شهدها المجتمع الفلسطيني في الضفة وغزة في الانتفاضة الاولى شهدت نهايتها بعد اتفاق اوسلو في «انتخابات» مجلس تشريعي، و«حكومة».

بدلا من اعتماد الناس على نفسها في تسيير امور مجتمعها وتنظيم اشكال راقية من العمل السلمي المقاوم للاحتلال، وهو العمل الاصعب الذي كانت نتيجته التماسك الاجتماعي الفريد والاعتماد على الذات، والاشكال التنظيمية الراقية من لجان شعبية وقيادة وطنية موحدة للانتفاضة، جلبت للمجتمع من الخارج «سلطة» وربط المجتمع بها ربطا طفيليا اقتصاديا وسياسيا، بحيث صار من السهل التحكم في هذا المجتمع كونه صار معتمدا على سلطة هي بدورها معتمدة على الخارج اعتمادا شبه كلي. وقد كان القارئ البعيد لاوضاع المجتمع الفلسطيني في غزة والضفة سيتوقع ان هذا المجتمع هو آخر المجتمعات العربية التي يمكن ان تصاب بمرض «فرط التسيس»، اي الاتكال الكلي على السلطة السياسية وربط كل شيء بها، ببساطة لان هذا المجتمع محتل فلا سبيل لاستلام سلطة حقيقية في ظل الاحتلال، ولكن ما رأيناه بعد اتفاق اوسلو كان بالفعل مهزلة مأساوية هي اسوأ بكثير مما جرى في الجزائر في تجربة الثلاثينات من القرن العشرين التي وصفها مالك، فقد فرضت على المجتمع سلطة حكم ذاتي سميت «حكومة» ولها رئيس وزراء وبرلمان منتخب، وصارت التنظيمات المختلفة تتنافس على مقاعد هذه الحكومة وهذا البرلمان. وليت الامر اقتصر على التنافس، فقد وصل الامر اخيرا الى الاقتتال والوقوف على شفا حرب اهلية لعل التاريخ لم يشهد لها مثيلا من قبل، اذ الحروب الاهلية تقوم عادة بعد الاستقلال لا قبله! وما من عبث لا معقول يمكن ان يخطر ببال اكثر السرياليين شطحا في الخيال يشابه ما يجري من تقاتل ابناء شعب مهدد وجوده بالاقتلاع هو الشعب الفلسطيني.

لو كان مالك بن نبي في غزة لنصح حماس بالتخلي عن اوهام السلطة والبرلمان، وبالعودة الى الجزء النهضوي الذي تبقى من تاريخ حركة الاخوان المسلمين، وهو ذلك الحزء الذي ميز الحركة قبل النصف الثاني من ثلاثينات القرن العشرين، فقبل ذلك كانت «جمعية الاخوان» جمعية اهلية هدفها بث روح النهضة في المجتمع، اما بعد النصف الثاني من الثلاثينات فتحولت الجمعية الى حزب سياسي ينافس على السلطة، بل يلجأ الى التآمر للوصول الى هذه السلطة، وهذا هو الجزء الثاني المكون للعمل الاخواني.

ان الاخوان في فلسطين مثل اغلب فروع الاخوان في البلاد العربية حافظوا على الجزأين معا، فتراهم يهتمون بالعمل الاجتماعي والتربوي، وهو ما يميزهم تقريبا عن جميع الحركات السياسية الاخرى، وهو الجزء الاول من تكوينهم وطريقتهم في العمل، لكنهم ينقضون هذا الجزء النهضوي المفيد في الجزء الثاني الذي هو العمل السياسي الهادف الى منافسة الاحزاب الاخرى للوصول الى سلطة محكوم عليها بالفشل سلفا، كونها اهتمت بالشكل ولم تهتم بالمضمون، ذلك ان السلطة تعبير اجمالي عن حال المجتمع، وهي لا تستطيع ان تتجاوزه الا بحدود ضيقة، وكان الاجدر بحماس التي ايدتها الناس لانها لم تتورط في الفساد وتشبيح السلاح على الناس الذي اشتهرت به اجهزة المنظمة القديمة، ان تحافظ على مهمة عامل النهضة الاجتماعي الذي يصلح المجتمع من اسفل ولا يتورط في المنافسة الرخيصة على مقاعد نيابية ووزارية لا قيمة لها.

لا شك ان السياسة الفلسطينية عند جميع التنظيمات مفتقدة الى اي منهج عقلاني حقيقي، وهي خاضعة بصورة شبه كلية اما الى ارتجال مناضلين حسني النية، او الخضوع التام للاملاءات من قبل قادة مرتهنين بالقرار الخارجي، وفي اعتقادي المتواضع ان الانتفاضة الثانية، انتفاضة الاقصى شكلت نقلة كبيرة الى الوراء في مضمار تحكم المجتمع الفلسطيني في نفسه، وفي مضمار بناء الممارسة السياسية على اسس عقلانية تحدد الوسائل المناسبة لبلوغ الاهداف وتعبئ المجتمع كله للاستعمال الامثل لهذه الوسائل لكي يصبح هذا المجتمع منيعا، غير قابل للاستعمار اولا وهذا بهدف ان يصبح في المرحلة التالية قادرا على التخلص من الاستعمار، وقد كان تكتيك المظاهرات السلمية في المقاومة في الانتفاضة الاولى والرؤية السياسية الرشيدة مبشرا بارتقاء المجتمع الى حالة حضارية ارقى بالفعل، اما ما وجدناه في الانتفاضة الثانية فهو انتقال المجتمع الى ان تتحول سياسته من الفعل الى رد الفعل، والى ان يصبح الخصم قادرا بهذا على ان يحدد خطوات المجتمع الذي يريد تفكيكه الى اقصى حد ممكن، وقادرا على ان يجر هذا المجتمع الى معركة في غير المكان والزمان الصحيحين، وبغير الوسائل المناسبة. ان السياسة الفلسطينية تتخبط بين الارتجال والامتثال، وهي سياسة مفتقدة مع الاسف للعقل، وهذا يكاد للاسف ينطبق على التنظيمات الفلسطينية الفاعلة كلها.

ولو كان مالك بن نبي في غزة لنصح الفلسطينيين بسياسة تستحق اسمها لا بسياسة زائفة يسميها اسما احتقاريا «بوليتيكا»، وهو يصفها هكذا: «هذه السياسة الخرقاء ما زالت تخفي العناصر الحقيقية للمشكلة عن ابن المجتمع: فهو يتكلم حيث يلزمه ان يعمل، وهو يلعن الاستعمار حيث يجب عليه ان يلعن القابلية للاستعمار».

* كاتب من فلسطين يقيم في برلين

موتى، موتى ضاع العدد

بدي ولد ابنو*

.1

ما ذا بقي لـ«مدينة السلام» من الأعياد سوى أعياد البكاء، سوى أعياد الفجيعة، سوى عواصف الحقد الهوجاء، سوى القتل والدمار والخراب، سوى الجنون والغرائز الجنونية، سوى بشاعة الهمجية الأكثر بدائية؟ مخجل لكل انسان أن تكون النفس البشرية قادرة على هذا الحجم من الهمجية والغرائز البدائية. «وفي العراق جوع» كما قال السياب. الجوع بكل أنواعه، وأوله جوع الى الدم، الى التدمير، الى الهمجية. أهكذا أضحى مهد الحضارات، ومهبط الثقافات، ومنبع الأبجديات، وبرج اللغات الانسانية، أهكذا أصبح رافد الرافدين اطعاما للغربان المغولية الجائعة، أصبح سوقا نافقة للحوم البشرية «لتشبع الغربان والجراد»؟

.2

لعل من أصابتهم الكوليرا في النيل ممن نعتهم نازك الملائكة كانوا أكثر حظا اذ تركوا الأرض قبل أن يعصف بها الطاعون البوشي القادم الى الفرات من خلف البحر ومن الظلمات القرسطوية. اليوم كل شيء للهدم والتدمير. الانسان والتاريخ والذاكرة. انها الحرب ضد كل خير وكل حق وكل جمال، حرب ضد انسانية الانسان وانتصار لكواسريته. كأن الأرض قد اعتزمت أن تظل صامتة فيما البراكين قد قررت أن تضرب بكل ما لها من نزق في يوم عيد القتل والسلب والنهب. «هذا ما قد مزقه الموت ... عشرة أموات عشرونا، لا تحص اصع للباكينا، موتى، موتى ضاع العدد، موتى موتى لم يبق غد».

لـ«مدينة السلام» اليوم أن تقول على الحكمة وبيتها السلام. أن تنسى العقل والنقل. أن تنسى دجلة والفرات. لها أن تسجل أن ما لم يقذف به المغول في النهرين من مكتبات قد تكفل «هولاكو اليانكي» سبعة قرون ونصف بعد أصحابه الأول بطحنه طحنا وحرقه حرقا. وحده الذهب الأسود في مذهب «هولا كو السكير» يستحق الحياة، أما غيره فللهدم والحرق. وحده جبل الذهب الأسود يستحق احترام «البووبس»:

«الجامع مات مؤذنه
الميت من سيؤبنه
لم يبق سوى نوح وزفير»

.3

نعم ذوو شهوة الدم لهم مذهبهم. ولا معنى أن يُنتظر منهم تسامح المنتصرين أو أريحيتهم لا ولا نفسهم الملحمي. فقرابينهم الماكدونالدية سخية لجبل الذهب الأسود، وله وحده. هما الرافدان قد قدما للعالم الأبجدية الأولى التي بها قرأ الكون وهم اليانكي قد جازوهما جزاء سنمار بالقنابل «المتعلمة» و«الذكية».

هل بالغ الرواة عندما شددوا على أن لون النهرين قد اخضرّ لكثرة ما أُغرِقَ فيهما المغول من مكتبات يوم العاشر من فبراير سنة 1258؟ ألم يحمرا الآن من دماء ذوي النهرين ولم يعد يعسر تصديق الرواة؟ نزوات هولاكو المغول وهولاكو اليانكي تتدافع بين الذروة والأوج. ابن الأثير ال